إشكالية الشك عند الجاحظ بين النظرية والتطبيق

Al-Jahiz's problem of doubt between theory and practice

أ. د. سالم محمد ذنون علي ، جامعة الموصل، كلية التربية للعلوم الإنسانية ، قسم اللغة العربية

تاريخ الاستلام 2025/5/1 تاريخ القبول: 2025/6/1 تاريخ النشر: 2025/6/15

ملخص:

تعدّ آراء الجاحظ من أقدم الآراء التي توصلت لمنهج الشك في التراث الكلامي والفلسفي والأدبي عند العرب، فهو صاحب المصنفات العديدة التي تكشف عن شيوع الروح الفلسفية والمنهجية في ثناياها، ففكره قائم على دقة الملاحظة، وعمق النظر، والتحليل، والمقارنة والنقد، وكشف المتناقضات والمغالطات في الأفكار المطروحة عليه بعد تأن وتمحيص، والشك عنده يمثل آلية علمية تقوم على أسس موضوعية دقيقة، فهو منهج عقلي يقوم على خطوات محددة تهدف إلى عدم التسليم المطلق بالأحكام المسبقة من دون برهان قوي، ورفض الأجوبة التي لا تقوم على معايير محددة.

ويهدف هذا البحث إلى دراسة مشكلة الشك عند الجاحظ، من خلال الإجابة على الأسئلة الآتية:

هل ارتقى الشك عند الجاحظ ليصبح منهجا فلسفيا..؟

كلمات مفتاحية: الشك – الجاحظ- اليقين- المنهج- التطبيق

Abstract:

Al-Jahiz's opinions are considered among the oldest opinions that reached the method of skepticism in the verbal, philosophical and literary heritage of the Arabs. He is the author of numerous works that reveal the prevalence of the philosophical and methodological spirit within it. His thought is based on accuracy of observation, depth of consideration, analysis, comparison and criticism, and revealing contradictions and fallacies in The ideas presented to him after careful consideration and scrutiny, and doubt

for him represents a scientific mechanism based on precise objective foundations. It is a rational approach based on specific steps aimed at absolute non-recognition of prejudices without strong proof, and rejection of answers that are not based on specific criteria.
This research aims to study the problem of doubt according to Al-Jahiz, by answering the following questions:
Did skepticism, according to Al-Jahiz, rise to become a philosophical method?
Can doubt be considered a theory that includes a group of issues that together form a cognitive system that leads to the construction of a number of conclusions supported by data of observation, observation, experimentation, comparison, criticism and interpretation...?
Keywords: doubt - Al-Jahiz - certainty - approach - application

توطئة:

تناولت هذه الدراسة قضية شغلت النقاد والشعراء العرب منذ زمن بعيد، وهي قضية الشك، فتراوحت أفكارهم بين المؤيد والمعارض والمضطرب بين التأييد والمعارضة، ولعل سبب ذلك هو جدلية هذه القضية، واختلاف النظرة إليها من شخص لآخر. فالرسول عليه الصلاة والسلام وبالرغم من موقف الإسلام من الشعر الشعراء، وتنزهه عليه السلام عن قول الشعر، إلا أنه كانت له وقفات نقدية يذكر فيها صدق الشاعر أم كذب.

وفي هذا الصدد يقول جهاد المجالي: " إن من النقاد من ينظر إلى الصدق من خلال واقعية التجربة في حياة الشاعر وكأنهم لا يقتنعون بما يسمى بالصدق الفني، أو في قدرة الشاعر في ملاحظة تجارب الآخرين والتفاعل معها إلى الحد الذي تدب حمياها في نفسه لتصبح همه وأرقه الذي يُقضُّ مضجعه، فيعبر عنها بصدق من يعانيها ويكتوي بنارها وهم أيضا لا يقرون، كما يبدو، بالدور الفاعل لمخيلة الشاعر وقدرته على تقمص التجربة والتفاعل معها بقوة خياله ودقة مسلكه، وسعة حيلته فيصورها لنا تصويرا نكاد نراه بأعيننا ونلمسه بجناننا.

ويُعرّف الشك بأنه نقيض اليقين وهو ضابط يحكم معطيات العقل، ويمنع من الاستسلام لمعطيات الحواس، ووسيلة لمعرفة الحقائق.

وقد تنبه كثير من الباحثين المسلمين القدامى إلى أهمية الشك لا سيما : ابن سينا (427 هـ) في (الشفاء والتعليقات والمباحث الشرقية والإشارات والتنبيهات)، وابن الهيثم (430 هـ) في (المناظر)، والإمام الغزالي (505 هـ) في (المنقذ من الضلال).

ولعل أقدم الآراء التي تأصل لمنهج الشك في التراث الأدبي العربي تعود لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (255 هـ) صاحب المصنفات العديدة في مختلف ضروب المعرفة. ذلك أن أول ما تكشف عنه آثار الجاحظ شيوع الروح المنهجية في ثناياها، ففكره قائم على دقة الملاحظة وعمق في النظر والتحليل والمقارنة والنقد، واللجوء إلى كشف المتناقضات والمغالطات في الأفكار المطروحة عليه.

وقد توسل الجاحظ الشك بوصفه آلية علمية تقوم على أسس موضوعية دقيقة، فالشك عنده يمثل منهجا من مناهج البحث الذي يتأسس على أصول منطقية معينة ترتكز على أساس من عدم التسليم المطلق، ورفض الأجوبة والأحكام المسبقة التي لا تستند على معايير محددة، تقطع الصلة مع مظاهر الفكر التسليمي التي تسربت إلى الثقافة العربية القديمة.

لقد عد الجاحظ مؤسسا لمنهج عقلي يؤمن بالاستدلال والحجاج، وتكشف عن ذلك مجمل آرائه النظرية والتي سعى إلى اختبارها وتطبيقها على عدد من الأخبار والروايات خصوصا في كتابه (الحيوان). وهذا ما يدفع إلى بيان منهج الشك عنده، وتتبع الآليات والأسس التي ينهض عليها منهجه نظريا وتطبيقيا.

1- الأسس النظرية لمنهج الشك عند الجاحظ

للشك عند الجاحظ أهمية قصوى ، فهو أس من أسس المنهج العلمي المفضي إلى المعرفة اليقينية، و خصوصا تلك التي تعتمد الأخبار مرجعا . ففي مؤلفات الجاحظ كم هائل من المرويات و المنقولات من كتب اليونانيين و الفرس و غيرهم ، وعدد لا حصر له من الأخبار التي سمعها ممن كان يعرفهم من أهل العلم و رواة الأخبار المعاصرين له . ومما أُثِر عنه قوله : "إن الإنسان لا يعلم ، حتى يكثر سماعه ، و كثرة الأخبار مشحذة للأذهان ، و مادة للقلوب ، و سبب للتفكير، وعلة للبحث، و طلب للمزيد من المعرفة" . فالأخبار تعد عنده مصدرا للعلم و المعرفة إلا أن المرويات تكثر فيها الخرافات، و الأكاذيب ، و ما يدخل في باب العجائب و الغرائب التي لا تستقيم مع العقل ؛ لذلك دعا الجاحظ إلى تمحيص المرويات و نقدها و غربلتها ، و حذر من الإسراع بقبولها أو رفضها قبل التوقف عندها ، و النظر فيها بالعقل مع التروي و التثبت ، والشك في الأخبار ضروري في نظر الجاحظ ، لأن البشر ميالون إلى التحريف و الكذب ، مولعون بالعجائب و الغرائب ، و لا سيما العوامّ ، فهم كما يقول الجاحظ ": أقل شكوكا من الخواصّ لأنهم لا يتوقفون عند التصديق ، و لا يرتابون بأنفسهم ، فليس عندهم إلا الإقدام على التصديق او التكذيب". و من عادة الجاحظ في التعامل مع الأخبار أن يرد منها ما لا يقبله عقله ، و ذلك بكل موضوعية ، غير مراع لمكانة صاحب الخبر و سلطته العلمية . فمن الأخبار التي رفضها أخبار وجدها في كتاب الحيوان لأرسطو كهذا الخبر الغريب >>: وقال صاحب المنطق: ويكون بالبلدة التي تسمى باليونانية "طبقون"، حية صغيرة شديدة اللدغ إلا أنها تُعالج بحجر يخرج من بعض قبور قدماء الملوك، "وعبر عن رفضه بقوله" : ولم أفهم

هذا ولمَ كان ذلك" .فإجلاله لأرسطو لم يمنعه من الشك في كثير من رواياته، لأن هدفه هو تحري الحق و الصدق ... ": و أن يكون الحق في ذلك هو ضالتك، والصدق هو بغيتك، كائنا ما كان ، وقع منك بالموافقة أو وقع منك بالمكروه.

و في كتاب الحيوان نصوص كثيرة تبرز منهج الشك في الأخبار و المرويات كما وضعه الجاحظ . فهو يبدأ بتقديم الخبر بسنده الصحيح كما سمعه ، أو نقله إليه الرواة الثقات، أو أهل الاختصاص في شعبة من شعب العلم ، يقدمه بأمانة و موضوعية ، دون حكم له أو عليه ، ثم يأخذ في تقليبه على وجوهه الممكنة ، والنظر فيه من جميع الزوايا ، لتبين مواطن الضعف أو القوة في مضمونه ، ثم يحكم بالقبول أو الرفض.

وليست كل الأخبار موضع شك عند الجاحظ ، فللشك مواضع لا بد من معرفتها " و اعرف مواضع الشك و الحالات الموجبة له لتعرف بها مواضع اليقين و حالاته الموجبة له ، و تعلم الشك في المشكوك فيه تعلما " فهناك ضربان من الأخبار مرفوضان قطعا "، و الحق الذي أمر الله تعالى به و حث عليه أن ننكر من الخبر ضربين : ما تناقض و استحال، والآخر ما امتنع في الطبيعة و خرج من طاقة الخلقة "... ، فالمستحيلات مرفوضة عقلا، ولا فائدة من البحث فيها . وما عدا ذلك فالشك فيها واجب ": فإذا خرج الخبر من هذين البابين ، وجرى عليه حكم الجواز فالتدبير في ذلك التثبت ".. ، والمقصود بالتثبت الشك والبحث للوصول إلى الحق ، و رفض الخبر أو قبوله.

والجاحظ ينهى عن تعوّد الشك في كل شيء لأنه يوقع صاحبه في الوسوسة : اعلم أن من عوّد قلبه الشكّ اعتراه الضعف ".

- **الشك في ظاهر الحواس:**

إن المتتبع لكتابات الجاحظ ولا سيما كتابه (الحيوان) يجد أن مصادره نابعة من إيمانه أن معرفة الفرد محدودة ولا سبيل لنماء علمه، إلا بالاطلاع على معارف السابقين. يقول أبو عثمان: (الإنسان لا يعلم حتى يكثر سماعه) لكنه لم يسلم بما يسمع ولم يطمئن إلى العلماء مهما كان مقدار علمهم، لأن التقليد والحفظ قاصران على إدراك الحقيقة، "وفي استخدام الجاحظ للشك المنهجي يتحفظ على معطيات الحواس، لأن الحواس قد تخطئ وقد تخدع صاحبها، ويقرر أن العقل وحده هو الذي يُعول عليه في الأحكام، وأنه هو القادر على تحرير الصادق منها من المخادع "يقول الجاحظ : "ولعمري إن العيون لتخطئ، وإن الحواس لتكذب وما الحكم[1] القاطع إلا للعقل، إذ كان زماما على الأعضاء وعيارا على الحواس" .[2] ويؤكد الجاحظ هذا المبدأ أكثر من مرة لأنه أصبح عنده من المسلمات : "وللأمور حكمان : حكم ظاهر للحواس، وحكم باطن للعقول، والعقل هو الحجة" .[3] فالجاحظ يدعو إلى عدم التسليم المطلق بالحواس التي تشكل عائقا إدراكيا ويحث في المقابل على إعمال العقل وجعل كل الظواهر والمعاينات محط شك واختبار وتمحيص للظفر باليقين، ويغدو الشك بذلك ترجمة فعلية للعقل. فقد

كان صاحب كتاب الحيوان "يعلق على المعاينة أهمية، كنقطة انطلاق، فلا يبدأ يطمئن إلى أمر إلا بعد أن يراه بأم عينيه ويتأكد منه، إذ كل قول : "يكذبه العيان فهو أفحش خطأ، وأسخف مذهبا، وأدل على معاينة شديدة، أو غفلة مفرطة، فكأنه يعلن ههنا ما قصده ديكارت، من بعده، حين قال : (لا تُصدق إلا ما كان واضحا، فالوضوح إنما هو أصل الأمر في اليقين) فالوضوح يبدأ بالمعاينة أو بالمحاسبة (اختبار الحواس بصورة عامة) لكنه لا ينتهي عند هذا الحد". [4]فأبو عثمان يشير إلى أن الحواس قد تكون خادعة أحيانا، وينصح بإخضاع ما تريه العين إلى رقابة العقل. ذلك أن للأمور حكمين : حكم ظاهر للحواس، وحكم باطن للعقول، والعقل هو الحجة، فلهذا ينصح بالذهاب إلى ما يريه العقل لا ما تُريه العين"[5]، (إن النتيجة التي توصل إليها صاحب الحيوان تبرز مدى إعلائه للعقل مقابل الحواس، وهذا يجعله يشكك في كل أمر حتى يبلغ فيه اليقين، محاولا تجنب الأفكار المسبقة في النظر إلى الأمور قدر المستطاع، ومن هنا كان نقاشه في شؤون كثيرة سمعها ولم يرض عنها عقله، ومن هنا محاجته (أرسطو) في قضايا رأى فيها غير رأيه، بل ومن هنا نقده اللاذع لأدعياء العلم في عصره والسخافات الرائجة والأساطير"[6]

- **الشك والنقد**

يعد الجاحظ الشك وسيلة من وسائل اكتساب العلم اليقيني، من خلال إخضاع كل المعطيات المزمع تناولها تحت مجهر الشك والنقد. فـ" لا بد الآن أن نتوقف لبحث الوسائل التي يتوصل إلى المعرفة اليقينية. ونقول إن غريزة العقل لا تفي بهذه المعرفة إلا بعد الاعتبار والتنبيه، وحسن النظر، والارتقاء من المعارف الحسية إلى المعارف العقلية، والانتقال من الشك إلى اليقين (...) إن النظر والاعتبار الذي يدعو إليه الجاحظ، لا يكون بفتح العين واستماع الآذان، وإنما (بالتوقف من القلب والتثبت من العقل، وبتحفيظه وتمكينه من اليقين والحجة الظاهرة)،"[7] (...)فالبراهين والأدلة التي بها يصل الإنسان إلى المعرفة اليقينية هي من أعمال العقل، كما أن الفصل بين الصحيح والباطل في معطيات الحواس يرجع إلى العقل".[8]

وقد أشار الجاحظ إلى عدد من الشروط الواجب استحضارها عند كل باحث في دراسته، وهي : وأن يحسن النظر وأن يكون ثاقب الذهن، وأن يتوخى الاعتبار والتنبيه والبحث، وأن يتريث في الأخذ بمعطيات الحواس، وأن يخضع كل المعطيات للشك والنقد. ويجعل فيكتور شلحت اليسوعي من هذا الشرط الأساس الذي تنبني عليه الحقائق "إذ إنه يعوّد على التوقف والتثبت من الأمور ويدفع خطر التسرع في قبول الأخبار والتعرض بالتالي إلى الخطأ. وأبو عثمان يسير على منهج أستاذه أبي إسحاق النظام، الذي كان يعتقد أن اليقين مسبوق لا محالة بالشك، وأنه (لم يكن يقين قط حتى كان قبله شك). ولما كان الشك وسيلة فحسب، فعلى الشاك أن يخرج منه باكتساب اليقين، إذ إن (ظلام الشك لا يجلوه إلا مفتاح اليقين). والطريق إلى ذلك، استخراج الأدلة التي تحوّل المظنون إلى يقين (...) فالشك إذن في نظر

الجاحظ يعد أسلوبا وطريقة في اكتساب المعرفة اليقينية. إذ يفيد الباحث التريث والتمهل والتوقف، ويدفعه إلى العمل على اكتشاف العلل والأسباب الحقيقية التي تزيل الشكوك وتفيد برد اليقين" .[9]إن منهج الشك عند الجاحظ يتأسس على النزعة العلمية المنطقية التي تعتمد على تفهم الواقع بواسطة التعريف والتعليل والاستدلال والقياس، وذلك بغية التحقق من هذا الواقع والإحاطة به على نحو يقيني.

2- الجانب التطبيقي

لم يكتف الجاحظ بالتنظير لمنهج الشك ووضع أسسه ومعالمه فحسب، وإنما عمل على تبنيه وتطبيقه على كل الأخبار والروايات التي ترد إليه سواء المسموعة أم المكتوبة في الثقافة العربية أو في الثقافات الأخرى.

- **الشك في صدق الروايات والأخبار:**

يعمد الجاحظ إلى أسلوب الشك في بعض الروايات من خلال تشكيكه بصدق الراوي وذلك لإسقاط روايته، أو من خلال كشف كذب هذا الراوي، وبالتالي الكذب في صحة الرواية وبطلانها، ومن أمثلة ذلك : شكه بأقوال طبيبين "زعما أن جيفة البعير أنتن الجيف وعزا ذلك إلى عصبيتهما على العرب وعلى المسلمين"[10] .فقال "وزعم لي سلمويه وابن ماسويه مطببا الخلفاء أن ليس على الأرض جيفة أنتن نتنا ولا أثقب ثقوبا من جيفة بعير، فظننت أن الذي وهمهما ذلك عصبيتهما عليه وبغضهما لأربابه، ولأن النبي صلى الله وسلم هو المذكور في الكتب براكب البعير".[11]

وقد يلجأ الجاحظ أيضا إلى التشكيك بالراوي بنعته بالجهل وقلة الحيلة ثم يلجأ بعد ذلك إلى مناقشة الخبر بطريقة علمية، وبأسلوب مبني على التدرج ليؤكد شكه في صحة الخبر، فقد أورد صاحب الحيوان خبرا عن شخص يدعى (المكي) فيقول: "وقال لي المكي مرة إنما عمر الذبان أربعون يوما، قلت : هكذا جاء في الأثر؟). وكنا يومئذ يواسط في أيام العسكر، وليس بعد أرض الهند أكثر ذبابا من واسط ولربما رأيت الحائط وكأن عليه مسحا شديد السواد من كثرة ما عليه من الذبان، فقلت للمكي : أحسب الذبان يموت في كل أربعين يوما وإن شئت ففي أكثر، وإن شئت ففي أقل، ونحن كما ترى ندوسها بأرجلنا، ونحن ههنا مقيمون من أكثر من أربعين يوما بل منذ أشهر، وما رأينا ذبابا واحدا ميتا فلو كان الأمر على ذلك لرأينا الموتى كما رأينا الأحياء، قال : الذبابة إذا أرادت أن تموت ذهبت إلى بعض الخربات، قلت : فإنا قد دخلنا كل خربة في الدنيا، وما رأينا فيها قط ذبابا ميتا" .[12] ثم يعلق الجاحظ على القصة بعرض و صف للرجل ليؤكد هذا التكذيب : "وكان المكي طيبا طيب الحجج ظريف الحيل، عجيب العلل، وكان يدعي كل شيء على غاية الإحكام، ولم يُحكم شيئا قط".[13]

- **الشك في عدد من القصائد الشعرية:**

من بين القضايا النقدية التي استأثرت باهتمام النقاد القدامى مسألة انتحال الشعر، وقد أدلى الجاحظ بدلوه في هذا الموضوع متفحصا ومشككا في نسبة بعض القصائد والأبيات لقائلها، وقد أشار إلى ذلك بقوله: "ولقد ولّدوا على لسان خلف الأحمر والأصمعي أرجازا كثيرة، فما ظنك بتوليدهم على ألسنة القدماء" .[14]ولهذا كان يعرض لبعض القصائد بالنقد ويثبت أنها لغير من نسبت له مستندا إلى حجج موضوعية، من ذلك تعليقه على بيت للأفوه الأودي هو

كَشِهَاب القذفِ يَرْمِيكُم بِهِ فَارِسٌ فِي كَفِّهِ للحَرْب نَار[15]

فيقول : "وأما ما رويتم من شعر الأفوه الأودي فلعمري إنه لجاهلي، وما وجدنا أحدا من الرواة يشك في أن القصيدة مصنوعة، وبعد فمن أين علم الأفوه أن الشهب التي يراها إنما هي قذف ورجم، وهو جاهلي، ولم يدع هذا قط أحد إلا المسلمون، فهذا دليل على أن القصيدة مصنوعة" .[16]لقد ناقش الجاحظ صحة نسبة القصيدة بمنطق الناقد الذي يمحص المعنى ويثبت أن المعنى الذي يشتمل عليه البيت هو معنى إسلامي ولم يسبق لأحد قبل الإسلام أن أتى به، وهذا ما يجعله يعتبر القصيدة منحولة وأنها ليست لمن نسبت إليه، ويعزز أقواله بآراء آخرين من النقاد وصلوا إلى ما وصل إليه.

وفي قصائد أخرى يشك الجاحظ بنسبتها إلى أصحابها، ولكن دون الحسم لهذا الشك لأنه لم يترجح لديه صدق النسبة من كذبها، ولذا نجده يروي القصيدة منسوبة لشخص ويشفع ذلك بقوله (إن كان قالها) ومن ذلك قوله : "وقال أمية (إن كان قالها):

رُبَّمَا تجْزِع الْنفُوسُ مِن الأمر له فرجة كحل العقال[17]

وقد يروي نصا منسوبا لقائل ثم يعقب على ذلك بقوله : (أو غيره) مدللا على شكه بتلك النسبة، ومثل ذلك قوله "(وقال زهير أو غيره):

إن الرزية لا رزية مثلها ما تبتغي غطفان حين أضلت[18]

لقد اتخذ الجاحظ الشك منهجاً في التفكير، ووسيلة للوصول إلى اليقين، وعقد في كتاب الحيوان فصلا كاملاً عن الشك واليقين، دعا فيه إلى الشك، قال: فاعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة له، لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له، وتعلّم الشك في المشكوك فيه تعلماً"[19]. وأورد بعد ذلك "الشاك أقرب إليك من الجاحد، ولم يكن يقين قط حتى كان قبله شك، ولم ينتقل أحد من اعتقاده إلى اعتقاد غيره، حتى يكون بينهما حال شك".

إن مقارنة بسيطة بين ما قاله الجاحظ، وما قاله ديكارت، تظهر بوضوح فضل الجاحظ في هذا المجال، وهذا ما فعله عدد من الدارسين، منهم محمد كرد علي، الذي انتهى إلى القول: "فكأن الفيلسوف ديكارت، في القرن السابع عشر، قرأ الجاحظ، وعرف فلسفته في هذا الشأن، ونغمتهما في هذا المعنى متشابهة، كأن الواحدة متممة للأخرى، أو الأخرى أخذت من الأولى"[20]. ومنهم أيضاً الدكتور محمود

الربداوي، الذي أكدّ أصالة هذا المنهج في العقلية العربية، من خلال سبق الجاحظ إليه. قال: "ولعله .وهو الأديب .من أسبق العلماء إلى أدق المناهج في البحث وهو منهج "الشك طريق اليقين" المعزو إلى ديكارت... فكلام الجاحظ دليل واضح على نهجه العلمي، وإحلاله الشك المحل الأول، بغية الوصول إلى اليقين القائم على التجربة والتعليل، وإعمال الفكر واستنباط القواعد، وهو لعمري منهج في البحث دقيق، وفي العقلية العربية أصيل وقديم، وإن ألبسه الناس ثوباً من الحداثة، وأكثروا من الصخب حول من ينسب إليه من علماء العصر الحديث"[21] وهذا الرأي أخذ به الكثيرون.

- **الواقعية عند الجاحظ**

الجاحظ في كتبه ورسائله كان شغوفاً بقضية الواقع، فهو في كتاباته لا يتستر ولا يتخفى حتى أنه يذكر السوءات والعورات في غير مواربة، أي أنه يذكر الحقائق عارية دون أن يسدل عليها أي ستار، أو أي حجاب. وقد دافع عن هذا المذهب، ورأى أن مَنْ يعدل عنه لابد أن يكون صاحب رياء أو نفاق، بل هو من أهل الصراحة، أو هو بمعنى أدق من أصحاب منهج الواقعية، الذين لا ينافقون، بل يصفون الأشياء كما هي في غير تحرج ولا تأثم حتى أنهم لا يخجلون من وصف بعض النزعات الجنسية. لأنهم يريدون أن يصفوا الحياة كما هي بدون تغيير، ولا تبديل إلاّ في حدود التعبير الفني.

وهذه النغمة من الواقعية في آثار الجاحظ (كتبه ورسائله) أثرت في كتاباته آثاراً مختلفة، ولعل أول هذه الآثار، عنايته بحكاية عصره، وتمثيله تمثيلاً دقيقاً، بحيث تعد أعماله أهم مراجع تكشف لنا حقائق العصر، الذي عاش فيه، إذ نراه يصور هذه الحقائق بكل ما فيها من طهر ووزر، ودين وزندقة، وجد ولهو، وبالغ في ذلك حتى أنه يروي كلام المجانين الموسوسين، وأهل الغفلة"[22]

وهذه الواقعية جعلته يدقق بألفاظه، وخاصة اختيار ما يلائم الشيء الذي يصوره أو يصفه، الأمر الذي دفعه إلى عدم الاهتمام بالتشبيهات والاستعارات، إلا ما جاء عفو الخاطر، أو كان الغرض منه تمثيل الواقع.

والواقع أن الوصف السردي أو التَصوير، هو أهم تقنيات السرد الحديث، فالقصة تعتمد دقة التصوير، وهي دقة ترسم الواقع رسماً أمنياً، بدون تهويل أو مبالغة أو اعتماد على استعارات وتشبيهات.. وفي هذا السياق ذكر الكاتب الامريكي أفلاهرتي، استاذ القصة القصيرة في المدارس الأمريكية مقولة مهمة:" إذا كنت تستطيع أن تصف دجاجة، وهي تعبر الطريق، فأنت كاتبٌ حتماً"[23].

وإذا كانت الواقعية عنصراً أساسياً في أعمال الجاحظ، فأنَ هناك عنصراً آخر أكثر أهمية في كتابات الجاحظ، وهو عنصر الاستطراد، فهو دائماً ينتقل من باب إلى باب ومن خبر إلى خبر، ومن شعر إلى فلسفة، ومن جد إلى هزل في تشعب هائل.

وفضلا عما تقدم، فإن للجاحظ في كتاباته عنصراً آخر أكثر أهمية، ألا وهو عنصر التلوين الصوتي؟، فقد عني الجاحظ بأصوات عناية تفضي إلى ضروب مختلفة من الإيقاعات الصوتية، ولم يكن

يستعين على تجميل هذه الإيقاعات بشيء من البديع وألوانه، بل كان يكتفي بها لتعبر عن كل ما يريد من جمال لأسلوبه، وليس معنى ذلك أنه كان يستخدم السجع أو أسلوباً مقارباً منه ويضاف إلى هذا العنصر عنصرٌ آخر، هو عنصر التلوين العقلي، فقد كان يشفع

كتاباته دائماً بضروب من الأفكار العقلية، وهي ليست تحسينات فنية في أصلها، وإنما هي تحسينات منطقية وفلسفية، وبمقدرته الفنية استطاع أن يحولها إلى تحسينات فنية خالصة"[24]

2025 Al-Hamdaniya Journal of Humanities 1446
كلية التربية للعلوم الإنسانية
University of Al Hamdaniya
مجلة الحمدانية للعلوم الإنسانية

خاتمة

إن الشك عند الجاحظ يمثل منهجا للمعرفة عنده، وهو يقرر لهذا المنهج ملامح واضحة، تصلح، إذا نظمت وضمت أجزاؤها إلى بعض، أن تكون نواة لنظرية للشك المنهجي تضاهي ما توصل إليه الفلاسفة والمفكرون من بعده.

والشَّك عند الجاحظ، لا يختلف البتة عن الشَّك المنهجيّ عند الإمام الغزالي والفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت فكلٌ منهم أراد الشَّكَّ طلباً للحقيقة؛ الحقيقة الجلية الواضحة، التي لا تقبل تفاوتا في الدَّرجات. وقد تتبيَّنُ لنا من ذلك مجموعة من النِّقاط المهمَّة التي تفصح عن أصالة الجاحظ وتجلو ملمحاً من ملامح عبقريَّته، فهو لم يرد الشَّكَّ لمحض الشَّك، ولا يقبل أن يكون الشَّكُّ كيفما اتَّفق ولا في كلِّ أمرٍ على حدٍّ سواءٍ ولا بالطريقة ذاتها، وقد أجرى الجاحظ تجارب ومعايناتٍ كثيرةً للتَّثبُّت من كل معلومةٍ وردت إليه، أو لنفي خبرٍ تناهى إلى سمعه ولم يستسغه عقله، والأمثلة على ذلك جدُّ كثيرة.

لقد أفاد الجاحظ في رسم معالم هذا المنهج من آراء المعتزلة وفلاسفة الإغريق، ورفع لواء العقل وجعله الحكم الأعلى في كل شيء، ورفض من أسماهم بالنقليين الذين يلغون عقولهم أمام ما ينقلونه ويحفظونه من نصوص القدماء. وقد اتسم منهجه بالتمهل والتريث والحذر، مما يفسح المجال أمام التنقيب والنقد حتى بلوغ اليقين، وذلك وفق أصول علمية ومنهجية.

قائمة المصادر والمراجع

1. التيارات والمذاهب الفنية في العصر العباسي، محمود ربداوي، جامعة دمشق، مديرية الكتب الجامعية، 1981-1982م.
2. الجاحظ في حياته وأدبه وفكره جميل جبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1974م.
3. رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1964م.
4. الفن ومذاهبه في النثر العربي، شوقي ضيف، ط10، 1983م.
5. مدخل في فن القصة القصيرة، د. صبيح الجابر، كلية الآداب والعلوم، جامعة التحدي، بيروت، الجماهيري العربية الليبية (د.ط)، 1996م.
6. النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ، فيكتور شلحت اليسوعي، دار المعارف، القاهرة، 1964 م.

الهوامش:

(1) الجاحظ في حياته وأدبه وفكره، جميل جبر ، 77.

(2) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، 58/3.

(3) الجاحظ، الحيوان، 1/ 207.

(4) الجاحظ في حياته وأدبه وفكره، جميل جبر، 77.

(5) الحيوان، الجاحظ، ، 6/ 10.

(6) الجاحظ في حياته وأدبه وفكره، جميل جبر، 78.

(7) الحيوان، الجاحظ، ، 4/ 211.

(8) النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ، فيكتور شلحت اليسوعي، 101

(9) النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ، فيكتور شلحت اليسوعي، 80

(10) الحيوان، الجاحظ، 1/ 246.

(11) المصدر نفسه 246/1.

(12) الحيوان، الجاحظ ، 234/1.

(13) المصدر نفسه، 234/1.

(14) المصدر نفسه، 234/1.

(15) المصدر نفسه، 3/ 49.

(16) الحيوان، الجاحظ ، 49/3.

(17) المصدر نفسه، 49/3.

(18) المصدر نفسه، 49/3.

(19) المصدر نفسه، 35/6.

(20) أمراء البيان، 396.

(21) التيارات والمذاهب الفنية في العصر العباسي، 476.

(22) الفن ومذاهبه في النثر العربي، شوقي ضيف، 136.

(23) مدخل في فن القصة القصيرة، د. صبيح الجابر، 75.

(24) الفن ومذاهبه في النثر العربي، شوقي ضيف، 166- 167.